شعره ، لا فى روح التعبير وحده بل تعداه إلى المعانى .

* * *

مسكين حافظ ! ما أتعس أيامك التى قضيتها وما أشقاها ! إن كنتَ لاقيتَ منا جحوداً فى حياتك فلن تعدم منا وفاء بعد مماتك . ان اسمك سيظل مذكوراً بعد أن كتب فى ثبت الخالدين . فلتنم ولتقر عيناً بين صحبك الابرار ، فان معبد شهرتك الخالدة يطل اليوم على قبرك .

وما شهرتك إلا روحك التى ستعيش بعدك فى قلوبنا ؟

نظمى خليل

حافظ

فنانٌ كما يجب

الجمال فى الحياة كثير : جمال الطبيعة ، وجمال اللذة ، وجمال الألم . والحياة فى غموضها وابهامها مظهر من مظاهر الجمال الرائع فى الوجود ؛ والانسان — مذ كان — مدفوعٌ إلى تصوير هذا الجمال بوحيٍ روحىّ من احساسه فى أسلوب يشفّ عن مبلغ هذا الاحساس ونوعه .

فكان الموسيقىُّ والشاعرُ المصوّرُ ومن الى هؤلاء الذين صفت عقولهم حتى صارت قلوباً .

وهؤلاء رسلُ الجمال فى الحياة ، وكما اختلفت رسالاتهم فى الفن قد تلونت أساليبهم بلون الشعور الذى حفزهم إلى الرمز والتعبير .

فنرى مصوراً مثلا قد ملكه جمالُ الطبيعة فقام يدعو لعبادة هذه الآلهة فى بلاغة من الصمت الناطق ، ثم نرى مصوراً آخر قد حيرته معانى الحياة ودفائن الوجود فسجد لجبروت هذا السر الرهيب ثم انبرى يصوّر هذه المعانى ويكشف عن تلك الدفائن بريشة العاطفة ومشعل الخيال .

وهكذا كان الشاعر ، وهكذا يجب أن يكون : يجب أن يقف كل شاعر فى محراب من محاريب الحياة يسبّح لالهة واحد من آلهة الجمال ، ويهتف بما يوحى اليه

من سماء هذا المعبود . يجب أن يبرز فى ناحية واحدة من نواحى الشعر تطغى على كل النواحى وتميزه عن غيره من الشعراء ، أى أن تكون له قيثارة واحدة يحملها دائماً ليعزف عليها كلما شاقه العزف حتى يصل بفنه إلى ما وراء الخلود .

... وهكذا كان حافظ .

عاد من السودان فى شوق ولهفة الى مصر فرأى راية التيمس ترفرف على النيل وتداعبها نسمات السيادة والسلطان أحياناً ، تزجيها عواصف الطمع والاستبداد ، ورأى تحت هذه الراية أمة مكبلة بالاغلال الثقيلة مستكينة لهذه القيود تغط فى نومها غطيط الهادىء فى سرر اليأس ووسائد القنوط . وكلما أحست وطأة السلاسل فتحت عينيها وعولت على النهوض فتخونها قدماها وتتعثر فى حبائلها وبحلق فوق جفنيها طائر النذير والوعيد من وراء البحار فيثقلهما ويملؤهما بالنوم مرة أخرى .

هـذا المنظر دفع بحافظ الى ربوة من الهم والكآبة على ضفة النيل ، وهناك رمى فى تيار النهر بالدفّ الهزيل الذى كان يضرب عليه وانتزع من بقايا قلبه المحطم قيثارة الوطنية والاجتماع . وأخذ يغنى فوق تلك الربوة قصيد الألم ونشيد الأنين ، وجعل يرسل شعره ثائراً صريحاً فى ثورته ، ثائراً على الأخلاق المصرية والرجولة المصرية وفى ثورته نصيحة واخلاص . وهل ترى أدعى إلى ثورة الشاعر الاجتماعى من أن يرى أبناء شعبه يهيمون بالالقاب والشهرة العمياء وموالاة المستعمر العابث وكل هذه المظاهر التى ما تزال بيننا براقة خادعة الى ما بعد حافظ . وهو هنا يرمى فى شعره الى الاغراض السامية ويصور المثل العليا ويكشف عنها فى شجاعة فنية وموسيقية بارعة ، ثائراً فى وجه المغتصب وهى ثورة الضعيف المبحوح وفى بحة صوته وضعفه نبرات المؤمن بحقه الصليب . أقرأ شعره الآن فأتخيله وكأنى أسمع منه الأنين المرّ وأكاد أرى جراح قلبه والدم يسيل على جوانبها وهو واقف الى جانب مصر العاجزة النائمة ليوقظها بنحيبه ويمد بيدها الموثقة فى ضراعة الى المغتصب الجبار رجاء ان يرحم ذلها وضعفها ويفك أغلالها ثم يدعها تضمد جراحها بنفسها . وقد يشير إلى القوة الكامنة فى هذا الضعف ، والثورة الجارفة التى لا بد ان يخلقها القيد والاستعباد .

هذه الصور وغيرها تجدها حية فى قصائده الخالدة — دنشواى — مصر فوق الجميع — غادة اليابان — وأشباهها .

« • »

هذه هى رسالة حافظ الشاعر التى دعا اليها ووقف فنه على خدمتها طول حياته ، ولعله كان لا يصلح الا رسول وطنية واجتماع . فلقد حاول أن يجعل فنه باقة من مختلف الازهار ، ولكن شاءت طبيعته غير ما أراد . ولعمرى ان الجمال الفرد الذى يشعّ من زهرة واحدة أبلغُ تأثيرا فى النفس من جمال حائر بين مجموعة زهرات .

فهو حينما نظم فى الغزل والمدح والخمر لم يكن فيه — على قلته — الا مقلداً دفعته رياح تقليدية من جنوب العصر . عرب (البؤساء) وكتب (ليالى سطيح) فخذله الفن فلم يوفق فى أسلوبه ، وإن كان قد وفق فى الغرض وأحسن القصد لأنه لم يكن الا شاعراً وشاعراً اجتماعياً فحسب . ولا ريب أنه فى كتابته هذا وتعريفه ذاك كان مدفوعاً بالنزعة الاجتماعية المتركزة فى طبيعته .

« • »

يبقى لنا أن نتساءل — ولابد أن نتساءل بعد الذى قررناه — كيف ارتفع حافظ بمراثيه الى درجة من الدقة والفخامة تكاد تعدل مراثى أفحل الشعراء الذين هتف بنبوغهم الزمن فى أبهى عصور الأدب العربى ؟

لا غرابة ولا عجب ، فهو إذ يرثى إنما ينظم أنات الشعب المفجوع فى عظيم قدم نفسه قرباناً لآلهة الجهاد والتضحية ، أو مصلح كان يوقد عقله لينير الطريق التى تظللها أشجار التقدم والنهوض . فليس غريباً اذن أن يألم حافظ وأن يرسل آهاته من أعماق قلبه الذى أذابه حب وطنه فتأتى هذه الآهات فناً شامخاً رفيعاً — رثى محمد عبده — سعد زغلول — قاسم أمين — وغيرهم من رجالات نهضتنا فكان يرثى محمد عبده لانه يبكى محمد عبده كما يبكيه الشعب ، وهكذا لم يضرب على نغمة فاترة واحدة ، وانما جاء شعره صدى لاحساسه المختلف ولاحساس الأمة نحو كل رجل وهذه هى القوة . وهذا هو الفن كما يجب وكما كان ؟

المهدى مصطفى